كلمة التحرير

نحو حضور فاعل للرؤية الإسلامية في الإصلاح التربوي المعاصر

بقلم: رئيس التحرير

شهد الثلث الأخير من القرن العشرين وعياً متزايداً بالحاجة إلى رؤية إسلامية في إصلاح التعليم العام والتعليم الجامعي، ولا سيما بعد هزيمة العرب عام 1967م، حيث تراجع المَدُّ القومي في معظم الأقطار الإسلامية، وظهرت حالة جديدة سُمِّيت بالصحوة الإسلامية، وأُنشِئت بعض المؤسسات التربوية التي أخذت صبغة إسلامية ظاهرة، وعُقِد المؤتمر الأول للتعليم الإسلامي في مكة المكرمة عام 1977م، تلته مجموعة من المؤتمرات المتخصصة في إصلاح التعليم في عدد من الأقطار الإسلامية.

وكذلك أُنشِئ عدد من الجامعات الإسلامية، وظهرت حركة إسلامية المعرفة، التي أثارت الاهتمام بموضوع ازدواجية التعليم الديني والتعليم العلماني، ونقدت النظامين، ودعت إلى توحيدهما في العالم الإسلامي بنظام تكاملي، يجمع بين ما في النظامين من إيجابيات، ويتجنَّب ما فيهما من سَلبيات. وقد سادت حالة من التفاؤل بأنَّ الأُمَّة خَطَتْ خطواتها الأُولى في التوجُّه النهضوي الإسلامي.

ولكنَّ هذه الحالة لم تدم طويلاً؛ إذ تعرَّضت جهود الإصلاح في الرؤية الإسلامية لمضايقات، وتوقَّفت مساحة الحرية النسبية في النشاطات التربوية ذات الصبغة الإسلامية، ولجأت معظم الدول إلى الاستعانة بخبراء أجانب، وفتحت المجال على مصراعيه للتعليم الأجنبي المدرسي والجامعي، وتطوَّرت مؤسسات الاعتماد العالمي، وضبط الجودة؛ ما جعل ميدان التعليم سوقاً مفتوحاً، ليس للنظريات والخبرات الأجنبية فحسب، بل للمرجعيات الفكرية المدعومة بالضغوط السياسية والمصالح التجارية، لا سيما بعد أن أخذت بعض البلدان خطوات واسعة نحو "خصخصة" التعليم، إما بقرار رسمي، أو بسياسات تؤدي إليه!

ولذلك، فإنَّنا نحتاج اليوم أكثر من أيِّ يوم مضى إلى إرادة صادقة في النظر المستقِلّ لمصلحة مجتمعاتنا وأجيالنا، موقنين بأنَّ اعتماد مرجعيتنا الإسلامية سوف يصوِّب المسيرة التربوية دون أنْ يحرمنا ذلك مما نحتاج إليه من الخبرات والتجارب التربوية في عالم اليوم. لكنّ الأخذ الأعمى بالمشورة الأجنبية في تطوير النُّظُم التربوية، واعتماد معاييرها، أفقد مجتمعاتنا فرص الإبداع في تطوير هذه النُّظُم بصورة تخدم المصالح الحقيقية لهذه المجتمعات، وتحفظ هويتها وتميُّزها. وفي الوقت نفسه تشكل النظم التي يمكن أن نبدعها نماذج هادية للمجتمعات الأُخرى، وبذلك تستعيد مجتمعاتنا كرامتها المهدورة بالتبعية والاستلاب الفكري والتربوي.

إنَّ ميدان التربية والتعليم يعجُّ بالفلسفات والنظريات التي تتحدَّث عن مواصفات الإنسان، التي تسعى كلُّ فلسفة أو نظرية إلى بنائه، وأصبحت المشكلة تتمثَّل في وضوح ما نريده لأنفسنا في ضوء واقعنا، وثقافتنا، ومجتمعاتنا، ومسؤوليتنا الحضارية. ولعلَّ من أُولى الأولويات التي نقترح توجيه النظر إليها الوعيَ بالأمانة التي ينبغي للمُربّين في المجتمعات الإسلامية، في مستويات التعليم المختلفة، أنْ يحملوها، بعد أنْ غابوا طويلاً، أو غُيِّبوا عن ميادين الاجتهاد والإبداع. فغياب الإرادة السياسية، وإحجام الإدارات العليا عن إتاحة المجال للرؤى المستقلة، وغياب البيئة الحافزة إلى الاجتهاد والإبداع في تطوير الرؤى النظرية والتطبيقات العملية، ضمن الرؤية الإسلامية، وغير ذلك من المُبرِّرات؛ لم يَعُدْ يرفع المسؤولية عن أحد.

ونحن حين نشير إلى مسؤولية مفكِّري الأُمَّة تجاه الفكر التربوي السائد اليوم، والحضارة الإنسانية بصورة عامة، نؤكِّد في الوقت نفسه أنَّ الفكر التربوي البشري يحتاج إلينا أكثر بكثير ممّا نحتاج إليه، لسببين؛ أولهما أنَّ مادة هذا الفكر المعاصر في سياقاتها النظرية وممارساتها العملية حاضرة في حياتنا، وثانيهما أنَّ ما لدينا من الطاقات الفكرية الكامنة ليس معروفاً عند غيرنا، وليس حاضراً في ممارساتنا. وعِبْرة التاريخ شاهدة على فقه التفاعل الحضاري؛ إذ يسير اتجاه التفاعل من مجال الغِنى إلى مجال الفقر. فعندما كانت أُمَّتنا غنية فكرياً وحضارياً، حتى في حالات ضعفها سياسياً، كانت الأمم تقف منها موقف المُتعلِّم.

ومن الأمثلة التي يتعيَّن على قادة الفكر التربوي الإسلامي أنْ يتحملوا أمانتها النظر إلى موقع الرؤية الكلية التي تضع مكونات العمل التربوي وعناصره التفصيلية في إطار كلي موحّد، يُعِين على تحديد التأثيرات المتبادلة فيما بين هذه العناصر، وعلاقاتها ببعضها، وبالمجموع العام. وإعمال هذه الرؤية الكلية هو الذي يتيح المجال للنظر في الموضوعات والقضايا التفصيلية، ووضع كلٍّ منها في الموضوع المناسب، من حيث: درجة الاهتمام، وطريقة التعامل، والتوظيف؛ فالقضايا والموضوعات التربوية ليست على درجة واحدة في ذلك. فمن القضايا الكبيرة على سبيل المثال طبيعةُ الإنسان الذي هو محور العملية التربوية، وذلك في بُعْده الإنساني والدولي والمحلي، وفي جوانبه النفسية والعقلية، والمادية والروحية، والفردية والاجتماعية. ومن هذه القضايا التي يتعيَّن على النخبة التربوية الإصلاحية مراعاتها الوعيُ بطبيعة المعرفة التربوية؛ فكثير من المادة المعرفية هي في مستوى محدَّد من التطوُّر، وما يَرِد في المناهج التربوية من معرفة ربَّما لا يكون في سقفه المعرفي المعاصر، وقد يكون مُحمَّلاً بالخطأ والوهم وفقدان الاتجاه. ولذلك يجب أنْ نمتلك من المعايير ما يصلح لفحص المعرفة، وتصفيتها، وإعادة توجيه ما يَلزم منها لأغراضنا الفكرية والثقافية والاجتماعية.

ومن هذه القضايا كذلك ما يتضمَّنه محتوى البرامج والمناهج التربوية من موضوعات علمية معينة تستند إلى مرجعية فكرية وفلسفية؛ ظاهرة، أو كامنة. لذلك يحتاج قادة الفكر التربوي إلى الوعي بالمرجعية النظرية التي تستند إليها المناهج التربوية وموضوعاتها المختلفة، ثمَّ تحديد الطريقة المناسبة للتعامل معها؛ فقد لا نجد مشكلة في الاستفادة من بعض نظريات علم النفس أو نظريات تصميم المناهج التربوية شريطة توافر الوعي المشار إليه، ومنهجية التعامل المناسبة. وهكذا الحال في سائر قضايا التربية والتعليم.

إنَّ قضية الـهُوِيَّة في جهود الإصلاح التربوي والاجتماعي، في العالم الإسلامي، تختلط أحياناً بنظرة منغلقة على الذات، تحصر نفسية الإنسان المسلم، وتحدُّ من قدرته على التفاعل في بيئة العالم المعاصر، بالرغم من أنَّ هذه البيئة منفتِحة على الاختلاف والتباين والتعدُّد، وتتيح للإنسان المسلم فرصاً مهمةً لأداء واجبه في توظيف هذه البيئة

للتواصل والتعارف الذي يشكِّل مقصداً من مقاصد التنوُّع والاختلاف. وخيرُ وسيلةٍ للتوفيق بين الهُوِيَّة والانتماء من جهة، وتحقيق مقصدِ "لتعارفوا" على المستوى المحلي والعالمي من جهة أُخرى، هي التربية بأوساطها ومراحلها المختلفة؛ فمسؤولية التربية هي إعداد الإنسان: فرداً، ومجتمعاً، ونوعاً بشرياً.

ومع أنَّ هذا البُعْد العالمي في رسالة الإسلام كان واضحاً منذ الأيام الأُولى لبدء نزول القرآن الكريم، وكان واضحاً في الممارسة التربوية النبوية طوال فترة الرسالة؛ فقد غاب هذا البُعْد عن ممارسة المجتمع الإسلامي في بعض الظروف؛ لغلبة مبدأ التمايز، والحرص على نقاء الهوية، لا سيما في الأزمان التي يغلب عليها الصراع العسكري. ونظراً لما شهده عالمنا المعاصر؛ من: وسائل التواصل والاتصال، والاعتماد المتبادل بين الشعوب والأمم؛ فإنَّنا نرى أنَّ من واجب القادة التربويين، اليوم أكثر من أي وقت مضى، توجيه مناهج التربية وممارساتها لتعميق الوعي بأهمية البُعْد الإنساني للتربية، وما يتطلبه ذلك من التواصل مع الآخر، تواصلاً مصحوباً بالثقة بالنفس، والاستعداد للعطاء، والتفاعل الإيجابي مع الآخر، من خلال الإيمان بأنَّ أصل العلاقة بالآخر هو الدعوة والسلام، والتعاون في تبادل المصالح والمنافع، والحرب هي الاستثناء في العلاقة بين الشعوب والأمم، حين لا يوجد سبيل لمنعها؛ ففي ظروف السلام وتبادل المصالح تتوافرُ الفرص المناسبة لتمكين الآخر من فهم ما لدينا من الخير، وتصحيح التصوُّرات والمفاهيم الخطأ التي ولَّدتها ظروف الصراعات والحروب، وظروف التخلف الحضاري في مجتمعات المسلمين. وهذه مسؤولية المسلم في الدنيا، أمّا نتيجة ذلك في إيمان المؤمنين وكفر الكافرين فأمره إلى الله، وحسابه في الآخرة.

إنَّ الرؤية الإسلامية الكلية للعالَم تتصل اتصالاً وثيقاً بالعلوم التربوية؛ فهي رؤية للإنسان الذي هو موضوع التربية في وجوده، وحياته، وبيئته التي يعيش فيها. وتتصل هذه الرؤية بما تقتضيه من مبادئ اعتقادية، وقيم مقاصدية، وأحكام جزئية. ويتمثَّل الجانب التطبيقي من العلوم التربوية في تدبير شؤون الحياة، ونظامها العام للمجتمع وفئاته وأفراده؛ فنظام الحياة في الدنيا هو الذي يحقِّق أسباب السعادة في الدنيا والآخرة. ولذلك، فإنَّ من

أهداف التربية ومقاصدها عند التربويين المسلمين الاهتمام بمقاصد الشرع التي تتحقَّق عن طريق العمل التربوي للأسرة والمؤسسات الأُخرى ذات الصلة المباشرة بالتربية والتعليم.

ونحن نرى أنَّ هدف العلوم التربوية في الرؤية الإسلامية –في نهاية المطاف– هو تطوير الفكر التربوي الإسلامي الذي يمثِّل فهم المجتمع المسلم لما يَلزم أنْ يقدِّمه لأبنائه في سائر المجالات التربوية؛ سواء أكان ذلك في تكوين الشخصية الإسلامية المتوازنة ذات الهوية المتميِّزة ضمن دوائر الانتماء الحضاري المُتضامِنة، أم في ميادين العلوم والمعارف الطبيعية والاجتماعية والتطبيقية. ومع ذلك، فإنَّ بناء الفكر التربوي الإسلامي لا يختصُّ بالعلوم والمعارف نفسها وحسب، وإنَّما يختصّ كذلك بالطريقة التي يكتسب فيها الإنسان المسلم هذه المعارف، وأساليب اختبارها، وميادين توظيفها في تطوير حياته وحياة مجتمعه. إنَّها التربية الفكرية التي تُعَدُّ أهم مجالات التربية التي لا بُدَّ أنْ تتولّاها المؤسسات التربوية في المجتمع؛ إنَّها تنميةُ فِعْلِ التفكير، بحثاً عن الحقيقة، بالأساليب المناسبة المؤدية إليها.

وتأتي أهمية الاهتمام بالتربية الفكرية في الرؤية الإسلامية، في هذا الوقت؛ لأنَّ بعض الفئات الإسلامية المعاصرة وقعت فيما وقعت فيه فئات إسلامية قديماً من انحرافات فكرية، تختصُّ بفهم نصوص القرآن الكريم والسُّنة النبوية، وفهم بعض محطات التجربة التاريخية للمجتمع الإسلامي، والخلط بين الفكر العلمي والفكر الخرافي، وبين الفكر المقاصدي السُّنني والفكر المزاجي العبثي، والعجز عن التوظيف المشروع للاجتهاد والتجديد في الفهم الإسلامي للواقع المعاصر، بما يموج به هذا الواقع من أفكار وأحداث، داخل المجتمعات الإسلامية، وفي المجتمعات الأُخرى. وقد أدى هذا الخلل إلى ضعفٍ بَيِّنٍ في القدرة على الانطلاق في مسار النهوض الحضاري، وفي دور الفكر الإسلامي في المشاركة الفاعلة على مختلف الصُّعُد.

والحديث عن التربية الفكرية لا يعني عدم الحاجة إلى الاهتمام بأنواع التربية الأُخرى. ولا يعني كذلك أنَّها تربية مستقلة ومنفصلة على أنواع التربية الأُخرى؛ فالإنسان هو الإنسان بجسمه، وعقله، وروحه، وعلاقاته برَبِّه ومجتمعه وبيئته. ولكنَّ هدفنا من التنويه

بالتربية الفكرية هنا، هو الكشف عن أهمية موضوعها، وضرورة تناولها بالدراسة بقدر من العمق والتفصيل.

وأخيراً فإن ثمَّة كلمة وَدَاعٍ ودعاء!

فمع صدور هذا العدد من مجلة إسلامية المعرفة (مجلة الفكر الإسلامي المعاصر) نكون قد دخلنا في العام المتمم لربع قرن من عمر هذه المجلة المديد إن شاء الله؛ حيث انتظم صدورها بأربعة أعداد في كل عام. وهي مناسبة نقف فيها وقفة تأمل، نستذكر فيها الجهود التي بذلها رئيسُ التحرير المؤسس شيخنا الدكتور طه العلواني يرحمه الله، ومديرُ التحرير ثم رئيس التحرير في بعض الفترات أخونا الدكتور جمال برزنجي يرحمه الله، وعددٌ ليس قليلاً ممن عمل في هيئة تحرير المجلة أو لجنتها الاستشارية، نسأل الله أن يجزي الجميع خير الجزاء.

وتأتي هذه الوقفة بمناسبة رغبة رئيس التحرير الحالي في إعفائه في نهاية هذا العام من مهمة رئاسة التحرير التي شغلها منذ العدد 48 الذي صدر في ربيع 1428هـ/2007م، وسوف تتولى إدارة المعهد العالمي للفكر الإسلامي إعادة النظر في خبرة المجلة وتجربتها شكلاً ومضموناً، واختيار إدارة جديدة للتحرير.

لقد رافق رئيس التحرير الحالي نشأة هذه المجلة من يومها الأول، وتابع تنقل هيئة التحرير والطباعة من كوالالمبور، إلى بيروت، إلى واشنطن، إلى عمّان، والتغيرات التي كانت تطرأ على هيئة التحرير بين الحين والآخر. وشهد خط النجاح المتصاعد في المكانة التي احتلتها المجلة بصفتها العلمية العالمية، ومضامينها الفكرية الإصلاحية، وإدارتها المؤسسية، حتى أصبحت واحدة من الأمثلة القليلة على الدوريات العلمية التي شهدها الإنتاج الفكري الإسلامي المتميّز في عصرنا الراهن.

ونأمُل أن يتواصل نجاحها ويتطور إلى مستويات أفضل مما تمكنت من الوصول إليه حتى الآن.

نسأل الله سبحانه التوفيق، والحمد لله ربِّ العالمين.